أمنية في علبة كبريت

شيرين حمد

دائماً كان عليّ أن أجمع المبعثر مني كي أكون، فالبداية كانت مع علبة كبريت، ومع تساؤل راودني باستمرار كيف لهذه المعلمة أن تجمع كل أحلامي في علبة كبريت؟

لن أنسى معلمتي هذه أبداً، ولن أنسى أمنياتي داخل علبة الكبريت تلك ... عندما كنت في المرحلة الأساسية، كنت أحاول التميز عن باقي أقراني. كنت أحب أن أتعلم. كانت مدرستي هي عالمي الذي أحاول أن أجد نفسي فيه، ولدت في عائلة متواضعة، وأم لم تكن تستطيع أن تقف إلى جانبي في مراحل تعليمي، كنت أذهب من منطقة إلى أخرى تقريباً نصف ساعة لأصل إلى بيت صديقتي حتى تساعدني والدتها في أداء واجباتي المدرسية. في أحد الأيام، طلبت منا المعلمة أن يكتب كل منا أمنية على ورقة، ويضعها في علبة كبريت، كانت أمنيتي أن أصبح معلمة.

قصتي مع الماضي، كانت ذات وجهين، جانب مضيء وإيجابي، وجانب معتم ومتعب، ولأني امرأة في مجتمع ذكوري، كان لا بد لي أن أنهض من بين الركام، وأن أجمع أشلائي المبعثرة، كان حدسي دائماً يحدثني أنه سيأتي اليوم الذي طالما انتظرته، كان يبدو أن ذلك سهل نسبياً عندما نفكر فيه نظرياً، ولكنه المستحيل بعينه في جانبه العملي التطبيقي.

مع مرور السنوات، تحولت تلك الأمنية إلى حلم سجين العلبة، تزوجت وأصبحت الأمومة هي الأمنية الأكبر حتى طال الانتظار ... لم يكن أمامي بديل سوى إعادة اليقظة للأمنية الأولى فقررت الالتحاق بكلية لأتابع بها تعليمي من جديد. كنت بين اثنين وثلاثين طالباً وطالبة، لم يكن الأمر، في البداية، سهلاً؛ فالعودة إلى مقاعد الدراسة بعد غياب لسنوات عديدة هو أمر يتطلب الكثير من الجهد والعزيمة معاً. وعلى الرغم من ذلك، ثابرت على أن أكون في المقدمة، وذهبت إلى التدريب في مجال رياض الأطفال، ووجدت نفسي هناك بينهم حتى حصلت في النهاية على تقدير امتياز، فجاءتني فرصة جديدة أن أصبح موظفة في تلك الكلية، وأعمل فيها على تدريب مجموعة من الطالبات اللواتي سيعملن في مجال الحضانات، وأمرر لهن ما اكتسبته من معرفة وخبرة في هذا المجال، ولكن في داخلي كانت تلح عليَّ رغبة أكبر، وهي أن أكون معلمة رياض أطفال، وأن أتعامل مباشرة مع الأطفال.

تعرفت على مؤسسة عبد المحسن القطان عبر إعلان لها عن برنامج تدريبي لمربيات مرحلة الطفولة المبكرة، فقدمت للبرنامج وأعربت عن رغبتي الشديدة بالالتحاق به. شعرت، هنا، بأن حلمي بدأ يتحقق. بدأت أتعرف على أساليب جديدة في تعليم الأطفال، عالم مختلف

من المعرفة بدأت أكتسبه، مؤسسة فتحت أمامي آفاقاً ورؤى جديدة لم أعهدها من قبل، فبدأت أشعر بمسؤولية مضاعفة اتجاه من سأقوم بنقل تجربتي ومعرفتي إليهن؛ مربيات الحضانات في الكلية اللواتي أقوم بتدريبهن، فشعرت بأن ما بت أحمله هو عالم جديد من المعرفة الخاصة بالتعليم، جعلني أرى الأطفال بعيون جديدة، ومهنة المربية كأهم المهن وأكثرها مسؤولية.

اكتسبت من خلال مساقات «القطان» مهارات جديدة، فلم أعد تلك المعلمة التي تستخدم القصة عن طريق السرد، بل أصبحت عالماً جديداً نخوض فيه رحلة جديدة مليئة بالكثير من العوالم الأخرى، ولم أعد أعتمد على الوسائل التعليمية الجاهزة، بل أصبحت أبتكر وسائلي الخاصة، والأهم أنني أصبحت أرى في كل طفل شخص خاص يحتاج إلى مساحته الخاصة في التعبير عن ذاته بطرق مختلفة.

حين أتحدث عن دور المربية يتداعى إلى ذهني مباشرة حادثة لم أستطع نسيانها أنا كأم، وعندها أتساءل كيف لابنتي أن تنساها؟ ففي أحد الأيام، بينما كنت ذاهبة لإحضار ابنتي من الحضانة كما كنت أفعل كل يوم، وإذ بها متعكرة المزاج، وما أن سألتها عن حالها حتى قالت لي: «ماما .. ماما ظهري بوجع المس غزتني». لم آخذ الموضوع على محمل الجد، فأنا لم أتخيل أنه يمكن لمعلمة أن تؤذي طفلاً، فقلت لها «بس نروح على البيت بنحكي» وما أن وصلنا حتى خلعت طفلتي ملابسها وكشفت عن آثار ما فعلته تلك من تسمي نفسها بالمربية، آثار الإبرة على ظهر ابنتي أفقدني صوابي، وجعلني أطرح العديد والعديد من التساؤلات.

تجاربي في الحياة وكذلك أمنياتي التي عانيت كثيراً في تحقيقها، غيرت كثيراً من شخصيتي، لكن تجربتي مع القطان كان لها الأثر الأكبر والتغيير الجذري الذي جعلني أكون من جديد شيرين التي أحببت أن أكونها، حتى لمس ذلك التغيير كل من كانوا حولي، عائلتي التي زينتها طفلتان، حاولت جاهدة أن أقدم لهما نموذجاً مختلفاً من الأم والمربية، طالباتي اللواتي قدمت لهن أساليب تربوية ما كانوا ليجدنها في مكان آخر سوى «القطان»، مكان عملي الذي قدمت له كل ما يمكنني لأنه أتاح لي الفرصة لأحقق حلمي.

كلية المستقبل – رام الله

المربية حمد مع أطفالها في نشاط خارجي.